

« المنظومات النحوية بين الوظيفة التعليمية والجدل اللساني الحديث »

Grammatical Didactic Poems between Educational Function and Contemporary Linguistic Debate.

كبوية أحمد*

جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان-

مخبر تحليلات إحصائية في العلوم الإنسانية وإعداد معجم موحد لها على مقاييس علمية (الجزائر)

Kabouiaahmed5@gmail.com

تاريخ النشر: 2026-06-09

تاريخ القبول: 2026-03-23

تاريخ الاستلام: 2026-01-12

الملخص:

تعالج هذه الدراسة قضية تيسير النحو العربي في إطار تعليمية اللغة العربية، انطلاقاً من تتبع الجهود التراثية والحديثة الرامية إلى تجاوز صعوبته لدى المتعلمين. فقد تمثلت محاولات التيسير التراثية في المتون والمختصرات والشرح والمنظومات النحوية، غير أنّ كثرة الخلافات والتفريعات أضعفت أثرها التعليمي في كثير من الأحيان. أمّا في العصر الحديث، فقد تزايد الإجماع على أنّ تعثّر تعلّم العربية يرتبط، إلى حدّ كبير، بإشكالية النحو، ممّا أعاد طرح سؤال التبسيط والتجديد بآليات مختلفة.

وانطلاقاً من ذلك، تطرح الدراسة إشكالية مفادها: ما مدى توافق المحدثين أو اختلافهم حول دور المنظومات النحوية في تيسير النحو العربي التعليمي؟ وتسعى إلى تحليل تصوّراتهم وتقويم جدواها البيداغوجية، والكشف عن حدود الإفادة منها في ضوء متطلبات التعليم اللغوي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: تيسير النحو العربي، تعليمية النحو، منظومات نحوية، محدثون، تعليم اللغة العربية.

Abstract:

This study addresses the issue of facilitating Arabic grammar within the framework of Arabic language pedagogy, by examining both classical and modern efforts aimed at overcoming learners' difficulties with grammar. Traditional attempts at facilitation were reflected in grammatical treatises, abridgments, commentaries, and versified grammatical texts; however, the proliferation of disagreements and detailed classifications often weakened their educational effectiveness. In modern times, there has been a growing consensus that difficulties in learning Arabic are largely related to grammar, which has renewed calls for simplification and pedagogical reform. Accordingly, the study raises the following research question: To what extent do modern scholars agree or disagree on the role of grammatical versifications in facilitating pedagogical Arabic grammar? It seeks to analyze their theoretical perspectives and evaluate their pedagogical validity in light of contemporary requirements of language teaching.

Keywords:

Facilitating Arabic Grammar, Grammar Pedagogy, Grammatical Versifications, Modern Scholars, Arabic Language Teaching.

* أحمد كبوية

مقدمة

تُعدّ مسألة تيسير النحو العربي من القضايا الإشكالية التي شغلت الفكر اللغوي العربي قديماً وحديثاً، لما للنحو من دور محوري في بناء الكفاية اللغوية وضبط الاستعمال السليم للغة العربية، إذ يمثل القاعدة المنهجية التي يُؤسّس عليها اكتساب سائر علوم اللغة. وقد تنوّعت المقاربات التي تناولت النحو بالتبسيط والشرح، واختلفت منطلقاتها بين ما هو وصفيّ، وتعليميّ، ووظيفيّ، غير أنّ النتائج المحقّقة ظلّت محدودة الأثر، لكون معظم هذه الجهود اتّسم بالطابع الفردي، وافترقت إلى إطار مؤسّسي جامع يضمن انسجام الرؤى وتكاملها.

ويكتسي موضوع تيسير النحو أهمية مضاعفة حين يُقارب من زاوية تعليمية، باعتبار أنّ النحو التعليمي يُعنى بتمكين المتعلّم من أدوات التعبير السليم، وصيانة اللسان من الخطأ، وتحقيق الملكة اللغوية التي تُمكنه من الاستعمال الفعلي للغة في سياقاتها المختلفة. غير أنّ واقع تدريس النحو في المؤسسات التعليمية، ولا سيّما في السياق الجزائري، يكشف عن اختلالات بنيوية تتجلى في هيمنة الطابع القاعدي التجريدي، وتغليب الحفظ والاستظهار على الفهم الوظيفي والتطبيق العملي، ممّا أسفر عن فجوة واضحة بين المعرفة النحوية النظرية ومجالات توظيفها في الخطاب الشفهي والكتابي.

وتزداد هذه الإشكالية تعقيداً في ظلّ التحدّيات التي تواجه اللغة العربية في محيطها التعليمي والثقافي، حيث تُعدّ القواعد النحوية ركيزة أساسية في مشاريع ترقية اللغة والإعلاء من شأنها، باعتبارها مكوناً جوهرياً من مكونات الهوية اللغوية والثقافية للأمة. ومن ثمّ، فإنّ إخفاق المتعلّم في تفعيل ما يكتسبه من قواعد نحوية داخل ممارساته اللغوية اليومية يطرح تساؤلات عميقة حول جدوى الطرائق المعتمدة في تدريس النحو، ومدى ملاءمتها لحاجات المتعلّمين ومتطلّبات التواصل اللغوي المعاصر.

وانطلاقاً من هذا المعطى، يسعى هذا المقال إلى الإسهام في النقاش العلمي حول قضية تيسير النحو العربي، من خلال مقارنة نقدية لواقع تدريسه في المؤسسات التعليمية الجزائرية، والتنبيه إلى ضرورة إعادة النظر في منطلقاته التعليمية، بما يحقّق التوازن بين المحافظة على البنية القاعدية للنحو العربي، وتفعيل بعدها الوظيفي التداولي في الاستعمال اللغوي. كما يهدف إلى إبراز الحاجة إلى مشروع علمي جماعي، تتكامل فيه الجهود البحثية والمؤسسية، قصد بلورة تصوّر تعليمي حديث للنحو العربي يستجيب لمقتضيات التعليم الراهن.

أولاً: ماهية المتن والنحو:

كانت كتب النحويين المتقدمين تؤلف لتنظيم ما اهتموا إليه من حقائق نحوية، فبعد اكتمال وضع علم النحو ونضج أبحاثه ومسائله، حينها جاء من يريد أن يضيف جديداً لم يجد زيادة، اللهم إلا شرح كتب من سبقوه أو توضيح ما عسى أن يكون فيها مما يصعب فهمه، وإضافة مما ظهر من تشعب الأبواب النحوية وكثرة المسائل الخلافية وتنوع العلل والتأويلات، هذا كله كان دافعا لظهور فريق سعى إلى اختصار الأبواب والمسائل في أذهان المتعلمين فألف المتن المنظومة التي برزت في القرن السابع هجري (707هـ) حتى باتت تشكل ظاهرة متميزة في منظومات التأليف النحوي أدت إلى ظهور شروح لها أكثر اتساعا تم بروز حواش وتقريرات.

1- المتن:**أ/ لغة:**

متن: الميم والتاء والنون أصل صحيح واحد يدل على صلابة في الشيء مع امتداده والطول منه، المتن: ما صلب من الأرض وارتفع وانقاد، والجمع متان، ورأيت بذلك المتن، ومنه الشبه المتنان من الإنسان: مكتفا الصلب من عصيب ولحم، ومتنته: ضربت متنه، ويقولون: متنه يذهبون إلى التحمة ومتن قوسه: وترها بعقب من عقب المتن، ومتن يومه، ساره أجمع، وهو على وجه الاستعارة. (الرازي أ، 2008، صفحة 397/398).

ب/ اصطلاحاً:

وهو ما ينتهي إليه السند من الكلام، والسند هو المعتمد، وسمي كذلك لأن الحديث يستند إليه ويعتمد عليه، وذكر "السيوطي" في تدريب الراوي عدة تعريفات للمتن في اصطلاح المحدثين نذكر منها:

المتن: هو ألفاظ الحديث التي تقوى بها المعاني، أو ما ينتهي إليه غاية السند من الكلام، وهو مأخوذ من المتانة وهي المبالغة في الغاية، لأنه غاية السند أو ما صلب من الأرض وارتفع لأن المستند، ويرفعه إلى قائله أو صيّف القوس أي شدها بالعصب، لأن المسند يقوي الحديث بسنده (الحباس، 2009، صفحة 269).

لقد اهتم المحدثون بالمتن، إلا أن اهتمامهم كان أكثر بالسند وهذا ما جعل بعض الدارسين ينفى كلية اهتمام المحدثين بالمتن، ونجد ذلك عند بعض المستشرقين الذين يرون أن الرواة لم يدرسوا الحديث من خلال متنه ليعرفوا مدى موافقته للعقل، وإنما درسوه حسب شهرة الرواة وتتبع هؤلاء المستشرقين بعض الدارسين العرب المحدثين.

حيث يرى "أحمد أمين" أن المحدثين اعتنوا بالنقد الخارجي ولم يعنوا هذه العناية بالنقد الداخلي.

ومازلنا ندرس النحو العربي بمصطلحاته وأبوابه وتفرعاته كما كان منذ أكثر من ألف سنة في مساجد البصرة والكوفة ورغم كثرة المحاولات التي رمت إلى تبسيطه وتيسيره، ومن المعروف أن تعري الشيء لنا دراسته والتوغل فيه، ويجدر بنا أن نتعرف على النحو والمقصود به لغة واصطلاحاً كعادة جل الدراسات.

2- النحو**أ- النحو في اللغة القصد:**

نقول: نحأ نحوه أي قصده، قال "الأزهري": النحو هو القصد نحو الشيء، نحوت نحو فلان، أي قصدت قصده، قال: وبلغنا أن "أبا الأسود" وضع وجوه العربية وقال للناس النحو نحوي فسمي نحواً.

والنحو حسب "الأشهبوني": "هو العلم المستخرج بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي اتلف منها" (الجوري، 1984).

ويذكر "الزجاجي" عن "أبي الأسود" أنه وضع كتاباً فيه جمل العربية ثم قال لهم أنخوا هذا النحو، أي أقصدوه، وهذا المعنى للنحو أكثر المعاني تداولاً وشيوعاً، إذ يقول "ابن دريد": "ومنه اشتاق النحو في الكلام كأنه قصد الصواب" (دريد، 1984، صفحة 575).

و"ابن فاس" قال: "ومنه ما سمي نوى الكلام، لأنه يقصد أصول الكلام فيتكلم على حسب ما كانت العرب تتكلم به" (القزويني، 1980).

ويقول "الصبان": "واصطلاح المتأخرين تخصيصه بفن الإعراب والبناء وجعله قسيم الصرف" (الجوري، 1984، صفحة 17). تُظهر التعريفات الواردة تطوّر مفهوم النحو في الفكر اللغوي العربي، وانتقاله من دلالة اللغوية القائمة على القصد والاتّجاه إلى كونه علماً مستقلاً ذا موضوع ومنهج ووظيفة. فالمعنى اللغوي الذي أشار إليه الأزهري ومن تبعه يعكس البعد الوظيفي الأول للنحو بوصفه وسيلة لضبط اللسان وتقويم الاستعمال، لا علماً تجريدياً في نشأته الأولى، وهو ما تؤكّده نسبة التسمية إلى "أبي الأسود الدؤلي" وقوله: "أنخوا هذا النحو".

ويعتق "ابن دريد" هذا المعنى حين يربط النحو بقصد الصواب في الكلام، بينما يُبرز "ابن فارس" بعده الأصولي، إذ يجعله قائماً على محاكاة كلام العرب واستقراء سننهم في التعبير. ومع "الأشهبوني"، يتبلور النحو بوصفه علماً مستنبطاً قائماً على الاستقراء والقياس، وهو ما يدل على نضج الدرس النحوي وتحوله إلى علم تعبيدي ذي منهج واضح.

ويؤكّد ما نقله "الزجاجي" عن "أبي الأسود" الطابع التعليمي للنحو في مرحلته التأسيسية، حيث كان التقعيد وسيلة لتيسير التعلّم وصيانة العربية من اللحن. أما عند المتأخرين، فقد استقرّ الاصطلاح -كما يذكر "الصبان"- على تخصيص النحو بدراسة الإعراب والبناء، وفصله عن الصرف.

وعليه، يُعرّف النحو بأنه علم معياري استقرائي يُعنى بدراسة أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً، اعتماداً على كلام العرب الفصحاء، قصد ضبط اللسان وصيانة اللغة وتحقيق سلامة التعبير.

ب- إصطلاحاً:

النحو في الاصطلاح هو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي اختلف منها، وهو ينبت أواخر الكلمات إعراباً وبناءً، ووظيفته تكمن في فهم مضمون النص وعناصره اللغوية، وتذوق مميزاته الجمالية ومكوناته الأسلوبية، وبيان خفاياه وأغواره، فهو ليس نحو إعراب فحسب أو نحو قواعد جامدة يتعلمها المرء دون توظيفها وتبين ملامحها البيانية والدلالية، ويمكن ضبط حدود النحو على حساب قول ابن جني: "النحو هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالثنائية، والجمع والتحقيق، والتكسير، والإضافة، وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، وأصله مصدر نحووت بمعنى قصدت ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم" (جني، 1952، صفحة 34).

معنى هذا أن النحو يتعدى حدود الإعراب والبناء والبحث في معرفة الأثر الذي يطل أواخر الكلمات إلى ما يعرف بالتركيب والصرف أيضاً، ويعرف صاحب المستوفي النحو، بأنه: "صناعة علمية ينظر بها صاحبها في ألفاظ العرب من جهة ما تتألف بحسب استعمالهم ليعرف النسبة بين صيغة النظم، وصورة المعنى، فيتوصل بإحداها إلى الأخرى" (الفرحان، 1987، صفحة 11). وبذلك يعتبر النحو وسيلة لاكتساب الملكة اللغوية الخاصة باللغة العربية، إذ أنه يجمع بين المعرفة اللغوية النظرية وكيفية ممارسة اللغة من خلال تمثيل مختلف أنماط وأساليب الكلام التي سمعت عن العرب أو قيس على تلك الأساليب والأنماط.

ثانياً: بين النحو العلمي والنحو التعليمي:

لقد وقع اجماع المشتغلين بالدرس النحو والمهتمين بشؤون التعليم على أن النحو العربي فيه صعوبة وجفاف يقف دون سلامة التعليم، على الرغم من الجهود المبذولة في تيسيره وإصلاحه في العصر الحديث، ومن ذلك مراعاة الفرق بين النحو العلمي والنحو التعليمي. فتجد أن علماء العربية القدماء لم يفصلوا بينهما باعتبارهما أساسيان في الدرس النحوي، وهما متكاملان يجسد أحدهما الآخر، ومع ذلك وضعت الكثير من الكتب المبشرة للطلبة في شتى المجالات.

" فالنحو العلمي هو كغيره من العلوم يمكن أن يكون فيه التحليلات والتعليقات العميقة التي لا يفهمها إلا المختصون، أما النحو التعليمي فهو النحو المذهب الذي تراعى فيه مستويات الدارسين، وتقدم فيه المادة العلمية في أسلوب شيق ومناسب لكل مستوى من مستويات الدراسة" (زاجية، مارس 2021، صفحة 269).

يفترق القول بين النحو العلمي، الذي يُعنى بالتحليل النظري العميق والتعليل الدقيق للقواعد النحوية، ويستهدف المتخصصين والباحثين في الدراسات اللغوية، وبين النحو التعليمي، الذي يركز على تبسيط القواعد وتهديتها بما يتناسب مع مستويات المتعلمين المختلفة، ويقدم المادة بأسلوب وظيفي ومرحلي يسهل الفهم والاستيعاب ويخدم العملية التعليمية، ويضمن اكتساب المتعلمين للمهارات اللغوية الأساسية دون تعقيد أو إرهاق فكري.

ثالثاً: نشأة المنظومات في الفكر اللغوي العربي:

قبل الحديث عن نشأة المنظومات النحوية في الفكر اللغوي، وجب الوقوف عن معنى ومفهوم النظم النحوية، فالبحت عن معناها في المعاجم اللغوية نجد أنها تجتمع حول معنى واحد وهو التأليف، حيث يقول ابن فارس: "النظم أصل يدل على تأليف شيء" (القزويني، 1980)، وجاء في لسان العرب "النظم التأليف، ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر ونظمتها، وكل شيء قرنته بأخر أو ضمت بعضه إلى بعض فقد نظمتها" (منظور، صفحة 472).

ويتضح من خلال تقفي معنى كلمة "النظم" مما ذكره علماء اللغة في معاجمهم أنها في أصلها ووضعها اللغوي جعلت لتدل على تلازم الأشياء وتربطها، لتشكل صورة متناغمة متناسقة، حيث يكون الاستغناء عن عنصر من عناصر هذه الصورة أو وضعه في مكان غيره مخالفاً بشكلها وجمالها، ولهذا أطلقت كلمة "نظم" على الكلام المتقن، ومنه الشعر لالتحام الكلمات فيه، اتصال بعضها ببعض فتشكل عملاً أدبياً متناسقاً، وهذا هو القصد كله من مجمل معاني النظم ومفهومه.

وفيما توافق عليه العلماء في معنى النظم اصطلاحاً، فإنه كما قال "فخر الدين الرازي": "خلاصة الكلام من التعقيد وأصله من الفصيح" (الرازي ف.، 2004، صفحة 164)، ويعرفه الجرحاني بقوله: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تصنع كلامك للوضع الذي يقضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت له فلا تخل شيء"، فالنظم عند الرازي عبارة عن توخي معاني النحو فيما بين الكلم.

وقد بدأ ظهور النظم النحوية عند العرب في القرن الثاني للهجرة، لكنهم لم يكونوا سابقين له حيث عرف عند اليونان من قبل، وانتشر عند العرب بعدما اتسعت معارفهم، وتنوعت ثقافتهم، وزاد إقبالهم على التعلم فلجؤوا إلى النظم حفظاً لمكتسباتهم فاستعانوا بالشعر كوسيلة مشوقة تستهمل على المتعلمين حفظ ما ورد عنهم في اللغة، فكانت أقدم منظومة نحوية عند العرب للإمام "الخليل ابن أحمد الفراهيدي" وذلك استناداً لما نسب له خلف الأحمر من قصيدته النحوية، والتي أورد منها في كتابه "مقدمة في النحو" قوله:

فالنسق وصل بالواو قولك كله * وب"لا" و"ثم" و"أو" فليست تصعب

إلقاء ناسقة كذلك عندنا * وسبيلها رحب المذاهب متشعب (الأسعد، صفحة 408).

ثم تتابعت بعدها المتون النحوية فنظم فيها العلماء وهي كالتالي:

- الأرجوزة في النحو والصرف، "الأحمد بن مصور الشكري" (370هـ) حيث بلغت أبياتها 2911 بيتاً، ونظمها سهل وعملها كثير.
- القصيدة "المنفرجة" أو كما سماها صاحبها "جمال الدين أبو القاسم بن محمد بن يوسف التوزري الرشيد" المعروف بابن النحو (513هـ) بالقصيدة "اليوسفية"، وهي قصيدة نحوية رائية وقعت في ثمان وثلاثين بيتاً مطلعها:

أيا طالب الإعراب دونك جملة من أحرفه ألفتها لك في شعري

تعلمك الإعراب وهي قريبة منظمة يسر بها إما يسر

ثلاثون بيتاً فرعها وثمانية تعلم يوماً ما يعلم في شهر.

- "ملحمة الإعراب ونسخة الأدباء" "لأبي محمد القاسم بن علي عثمان الحريري" (516هـ) صاحب المقامات، وهي منظومة نحوية من بحر الرجز وبلغت أبياتها 277 بيتاً، وتعد هذه المنظومات بحق أولى المنظومات النحوية التعليمية والشعرية في سبيل تسهيل النحو وتعليمه. وصنع "أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن هشام بن أحمد الفهري الشنتمري" (533هـ) أرجوزة في النحو، وله أيضاً شرح لهذه الأرجوزة (السيوطي، 1387، صفحة 325).

حيث يعدّه أحد الباحثين المعاصرين رائد النظم النحوي لأنه استخدم مقدّراته الموسيقية وتمكّنه من الأوزان الخليلية فعمل الأرجوزة في الغريب وأرجوزة في القراءات، وأرجوزة في الخط، إضافة إلى أرجوزته في النحو، مما يؤكد مقدّراته في الصياغة الموسيقية، ومعرفته لهذه العلوم واتقانه لها.

- الكافية الشافية، وهي أرجوزة جمع فيها "ابن مالك الطائي الجبائي" الأندلسي الأصل، المتوفي سنة 672هـ، معظم مسائل النحو والصرف، وبسطها ورتب أبوابها وضبطها، وجلا الغامض، ويسر العسر، وضم المشتّت وقرب البعيد حيث ظهرت في صورة كافية عن كل كتاب، شافية للأساتذة والطلاب حيث يقول في مطلعها (الطائي، 1409، صفحة 156):

وهذه أرجوزة مستوفية ... عن أكثر المصنفات مُعَيَّنة.

تكون للمبتدئين تبصرة ... وتظفر الذي انتهى بالتذكرة.

فعظم الفن بما مضبوط ... والقول في أبوابها مبسوط.

وُعدَّ الكافية من أبرز مصنفات "ابن مالك"، المعروف بمنظومته الخلاصة، أو ما يُعرف بالكافية ابن مالك، والتي اكتسبت شهرة واسعة بين المتعلمين، لما تضمه من خلاصة دقيقة للقواعد النحوية، منظمة بأسلوب متدرج يسهل حفظه وفهمه وتطبيقه. وما يزيد من أهميتها أنّها تجسّد روح النظم العربية في تقديم المادة العلمية بطريقة تجمع بين الإيجاز والوضوح، مع مراعاة تبسيط الصعوبات النحوية التي قد تعترض سبيل المتعلم.

ولا يخفى أنّ الموروث العربي في مجال النظم والمنظومات النحوية هائل، ولا يمكن حصره في حدود ورقة بحثية واحدة، فقد كانت عصور الإبداع والإنتاج عند العرب زاخرة بمتون ومنظومات متعددة، أسهمت في حفظ المعارف والعلوم عامة، وتيسير تعلم النحو للطلاب بشكل خاص، من خلال توفير وسائل منهجية واضحة، تُسهّل الربط بين الجزئيات والكلّيات، وتتيح للمتعلّمين اكتساب القواعد بأسلوب متدرج وعملي. وتظل هذه المنظومات، بما تضمه من نظم متقنة وشرح دقيقة، مرجعاً حياً للتعليم اللغوي العربي، يعكس مدى اهتمام العرب بالحفاظ على اللغة وصيانتها، ويؤكد الدور المستمر للتراث النحوي في دعم العملية التعليمية المعاصرة.

رابعا: النظم النحوية ودورها التعليمي:

تُعتبر ظاهرة النظم النحوية جزءاً أصيلاً من تراثنا اللغوي الخالد، الذي يظل مرجعاً لا يُستغنى عنه للدارس مهما علا كعبه في العلوم والمعارف، لما احتوته هذه النظم من خبرة تراكمية وتجارب لغوية متقنة.

ولها أدوار تعليمية كثيرة، منها قدرتها على تبسيط القواعد، وشرح الصعوبات النحوية، وربط الجزئيات بالكلّيات، وتسريع اكتساب المتعلم للمهارات اللغوية، إلى جانب تعزيز القدرة على إنتاج خطاب سليم وفق قواعد اللغة العربي، ظف إلى ذلك:

- إمداد الرواة بالألفاظ والأساليب الشاذة والناذرة وتزويدهم بالشواهد والأمثال المأثورة والشرح والتوضيح والاستشهاد.

- حفظ أصول اللغة العربية والعمل على معرفة كلام العرب.

- صون اللسان العربي من اللحن والخطأ والتحريف وإثبات الأصل اللغوي (جلالي، 2013، صفحة 35).

- الميل للاختصار والخلو من كل ما يؤدي إلى التفصيل وقلة ذكر المذاهب والخلافات، وأحسن كتب النحو للمبتدئين متن الأجرومية وهي كافية لمن اقتصر عليها، أي أنّها تكفي المبتدئ في تعلمه النحو العربي.

- تيسر على الطلاب سبل الإلمام بالمعارف وحفظها وسرعة استحضارها وقت الحاجة وسبيل ذلك منظومتي "ابن مالك" "الكافية الشافية"، التي اختصرها في خلاصة الألفية، وأيضاً ألفية "ابن معطي".

- تعيين النظم النحوية على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، وما انتجه العلماء الأجلاء، ثم تعلم اللغة العربية.
- توضيح النظم النحوية أن تغير حركات الألفاظ له دور في تغير الدلالة.
- لها دور في إبراز ظاهرة التقسيم ومثال ذلك تقسيم ابن مالك الأفعال ثم انتقل إلى تقسيم الأسماء أيضا.
- تحفظ المتون ركائز أبواب النحو، كأنواع الكلمة وخصائص كل نوع والبناء، والتدرج منها إلى الجملة ووظيفتها، ووظيفة الكلمة فيها، وما يطرأ عليها من ألوان الضبط الإعرابي.
- لها دور هام في توضيح الفرق بين المعرب والمبني، وتقنن ضوابط اللغة لتستقيم لغة العرب، حيث أنه إذا اختلت اللغة فسر الكلام ولم يدرك المراد (بوهني، 2014، صفحة 46).

نستخلص مما سبق أنّ المنظومات النحوية تُعدُّ جزءاً أصيلاً من التراث اللغوي العربي، لما احتوته من خبرة تراكمية وأسهمت في تيسير تعلم النحو للطلاب، من خلال تزويدهم بالألفاظ والأساليب النادرة والشواهد الماثورة، وحفظ أصول اللغة وصون اللسان من اللحن والخطأ، مع الاختصار وتجنب التفصيل المفرط. وقد سهلت هذه النظم فهم القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ووضّحت أثر تغير الحركات على الدلالة، وأبرزت ظاهرة التقسيم النحوي وحفظت ركائز أبواب النحو ووظائف الكلمة والجملة، كما ساعدت على تقنين ضوابط اللغة لضمان استقامة التعبير. وتمثل هذه المنظومات أداة تربوية متكاملة تراعي مستويات المتعلمين وقدراتهم، ما يعكس حرص المحدثين على الجمع بين أصالة التراث وفعالية التعليم المعاصر، ويفتح آفاقاً لإعادة توظيفها في المناهج الحديثة ووسائل التعليم التفاعلية.

خامساً: موقف المحدثين من النظم النحوية ودورها في تيسير النحو العربي:

تعد المنظومات النحوية جزء من تاريخ علم النحو ونمط من أنماط التأليف النحوي وحلقة من حلقاته، ومرحلة من مراحلها التي أثرت فيما بعدها من مؤلفات، فقد ظهرت ونشأت وتطورت ونمت وحافظت على مكانتها مدة طويلة من الزمن، إذ لها ماله من قيمة علمية بالغة، ودور عظيم في تنشيط الحركة الثقافية، إضافة إلى أنها وسيلة من وسائل نقل العلم وتعليمه، فكان لها دور على حمل التراث النحوي والحفاظ عليه.

ثم إننا نجد مجموعة من الدارسين المحدثين بذلوا جهوداً حثيثة وجبارة في سبيل تيسير النحو وتجديده، والقصد بالتيسر هنا هو عمل على تسهيل القواعد النحو بالتخلص من الصعوبات التي تكتنفها، فهو تيسر يدعو إلى الاختصار وليس إلى حذف الشروح والتعليقات الواردة في المؤلفات القديمة، ويهدف إلى عرض جديد لمحتويات النحو وموضوعاته بتقديم حلول لمشاكل تعترض سبيل المتعلمين للنحو. وينادي المحدثون كما سبقهم السابقون من المهتمين بأحوال الدرس النحوي وتيسره إلى البحث والتدبر الجاد بغية استنباط وسائل تيسر النحو على متعلميه ودراسيه لما فيه من تعقيد وصعوبة، وهي الصعوبة نفسها التي أحس بها القدامى من النحويين وغيرهم بعد أن تأسس النحو (عيساني، 2008، صفحة 89).

ونجد أنّ آراء المحدثين قد اختلفت بشأن دور المنظومات النحوية والمتون في تيسير النحو. فقد رأى بعضهم أنّ اعتماد هذه النظم يمثل الطريقة والوسيلة المثلى في مناهج تعليم النحو للناشئة، لما تتسم به من تفصيل متدرّج، وشرح مستفيض، وتوضيح للصعوبات النحوية التي كانت تشكّل حاجزاً أمام فهم المتعلمين. وتتميز هذه المنظومات بقدرتها على تقديم القواعد في سياق متكامل يسهل على المتعلم ربط الجزئيات بالكليات، كما تراعي التدرج في مستويات الصعوبة والقدرة العقلية للمتعلمين، ما يجعلها أداة تعليمية فعّالة للتقليل من التجريد والنصوص المعقدة التي قد تثقل كاهل المتعلم.

وعلى الجانب الآخر، يرى بعض المحدثين أنّ المنظومات، رغم مزاياها، تحتاج إلى توظيف مدروس ضمن استراتيجيات تعليمية حديثة، تجمع بين الشرح التقليدي والمقاربات التفاعلية، لضمان ترسيخ المعرفة وتحقيق اكتساب مهارات تطبيقية للغة، بما يعكس الدمج بين الأصالة التراثية وفعالية التعليم المعاصر.

وانتقدها البعض - أي المنظومات النحوية - ووصفها بالمعقدة والصعبة على غرار "إبراهيم مصطفى" صاحب كتاب "إحياء النحو"، هذا الكتاب الذي أثار ضجة إبان نشره، لنقده النظريات التقليدية في النحو، وهو يلتقي في بعض آرائه مع "ابن مضاء" إلى جانب كثير من

المؤلفات الأخرى، والتي كانت تدعو إلى التيسير مثل: المؤلفات النحوية لكل من "حنفي ناصف"، و"علي الحازم" و"مصطفى أمين"، و"شوقي ضيف"، "مهدي المخزومي" و"تمام حسان" (بلعيد، 2004، صفحة 248).

ومثال هؤلاء الدارسين المحدثين أنهم ركّزوا في أبحاثهم وإنتاجهم على تتبع العيوب والنقائص التي لاحظوها في أبواب ومسائل النحو من خلال دراسة متأنية لمؤلفات المتقدمين والمتأخرين. وقد تناولوا ظاهرة الإعراب ومشكلاتها بعين لغوية دقيقة، معتمدين على التحليل اللغوي الخالص بعيداً عن التعسف أو الالتجاء إلى العلل الفلسفية غير الضرورية، سعياً لإيجاد حلول واضحة وميسرة تُزيل العقبات أمام المتعلمين، وتسهّل فهم القواعد وتطبيقها.

كما سعى هؤلاء المحدثون إلى تقديم هذه الحلول بأسلوب تدريجي ومنهجي، مراعاةً للفروق الفردية بين المتعلمين ومستوياتهم العقلية، بحيث تصبح قواعد النحو أقرب إلى المتعلم وأكثر قابلية للاستيعاب والتطبيق، وهو ما يوضح حرصهم على الجمع بين أصالة التراث وفاعلية التعليم المعاصر.

سادساً: المنهج النبوي الوصفي والمنظومات النحوية في ضوء الدرس اللساني الحديث:

تظهر العلاقة بين المنهج النبوي الوصفي والنحو العربي من خلال استفادة عدد معتبر من اللغويين العرب المحدثين من أدوات التحليل النبوي، على نحو يوازي ما أنجزه اللسانيون الغربيون. غير أنّ هذه الاستفادة لم تكن موحدة، إذ تفاوتت بين القبول الكلي والجزئي والتحفظ، بحسب المرجعيات المنهجية وخيارات البحث لدى كلّ باحث.

وقد أسهمت الأعمال الحديثة في تحديد أدوات التحليل وإعادة قراءة التراث النحوي العربي في ضوء تصوّرات معاصرة، مع التركيز على البعد الوصفي في دراسة الظواهر اللغوية. ويظهر هذا بوضوح في أعمال عدد من اللغويين العرب المحدثين الذين اعتمدوا المنهج النبوي الوصفي في مقارنة النحو العربي، ومن أبرزهم "إبراهيم أنيس"، و"تمام حسان"، و"كمال محمد بشر".

ويلاحظ أنّ هذه المقاربات تستفيد من تصوّرات المنهج النبوي الوصفي العربي، لا سيّما فيما يتعلّق بالتمييز بين المنحى التاريخي والمنحى الآتي، مع مراعاة الخصوصية العربية في البنية اللغوية. ويتجلى ذلك في موقف الدكتور "كمال محمد بشر"، الذي يؤكّد في الحديث عن الأفعال المعتلة:

”إنّ للأفعال المعتلة منهجين منفصلين: أحدهما تاريخي والثاني وصفي. ويعني الثاني منهما بوصف الموجود بالفعل، مضيفاً قوله، ولا يجوز لنا أن نتعدّى هذا الواقع بحال من الأحوال ونحصر عملنا في الوصف دون التورّط في افتراض أو تقدير أو تخمين” (بشر، 1973، صفحة 16).

وبناء على هذا التصوّر، يُنظر إلى أفعال مثل “قال” و”خاف” و”دعا” و”رمى” كوحّدات لغوية متحقّقة في الاستعمال، دون استحضار صيغ مفترضة. ومن ثمّ تُستبعد صيغ مثل /قَوْلَ/ و/يَقُولُ/ و/يُوصِفُ/ و/مُؤَزَّانَ/، باعتبارها افتراضات أو صوراً تاريخية غير متحقّقة في الاستعمال (جني، 1952، صفحة 257).

وفي المقابل، يشير التراث النحوي العربي إلى استخدام التقدير والافتراض كأدوات تفسيرية تهدف إلى ضبط علاقات البنية اللغوية الداخلية، وليس لإنشاء صيغ اعتباطية. ومن هنا، يظهر التباين بين المنهجين: التركيز النبوي الوصفي على المنجز الآتي، والتحليل التراثي العربي الذي يدمج البعد التفسيري لتفسير انتظام الظواهر.

ويُدرج في هذا السياق ما أورده الدكتور "الطيب البكوش" في حديثه عن النظرية الصرفية، إذ يرى أنّ ”تتضمّن النظرية النحوية عيوباً جوهرية“، تتمثّل — في نظره — في الخلط في المصطلحات وبعض المفاهيم الصوتية، والخطأ في تعليل بعض التغيّرات الصوتية لانطلاقها من الرسم المرئي لا من سلسلة الأصوات المنطوقة (البكوش، 1987، صفحة 20).

ويستدعي هذا الطرح مزيداً من التمهّص المنهجي، والالتزام بالقراءة المتأنية والموضوعية للنظرية الصرفية القديمة، قبل الجزم بطبيعة هذه العيوب أو مدى شمولها.

أما ما يتعلّق بالقول بانطلاق النحاة من الرسم المرئي، فيلاحظ أنّ مقصودهم لا ينصرف إلى الكتابة في ذاتها، وإنما إلى صور صوتيّة افتراضية يُقرّر علم الأصوات الحديث بأصلتها. فـ “الواو” في صيغة “يقول”، التي أصلها /يقُولُ/، تُعدّ في الحالة الصوتيّة الوظيفيّة مصحّحة إذا تلتها حركتها، وتتحقّق صوتيًّا حرف إشباع إذا سبقتها الحركة التي هي من جنسها، ليطبّق نظريًّا مبدأ النقل أو إسكان متحرّك وتحريك ساكن، فتؤول الصيغة إلى “يقُولُ”. ويكشف هذا الإجراء عن مستوى عالٍ من التجريد في تمثّل العلاقة بين الحركات والحروف، وبناء صيغ مجرّدة تخضع لنسق من القواعد المفترضة.

وفي الاتجاه نفسه، يذهب الدكتور “فوزي حسن الشايب” إلى أنّ نظرة النحاة العرب القدامى للمسائل اللغويّة “قد أثقلت كاهل الدراسة اللغويّة بكثير من الأحكام والتأويلات التي تُحايي طبيعة اللغة، ممّا جعل النحو والصرف من أكثر الميادين التي باضت وفترخت فيها كثير من التخيّلات والمفاهيم الخاطئة والآراء المعدّة سلفاً” (حسن، 1988، صفحة 16).

وثُبرز هذه المواقف تعدّد زوايا النظر إلى التراث النحوي والصرفي، بين من يركّز على الطابع الوصفيّ الآني للظاهرة اللغويّة، ومن يستحضر البعد التفسيريّ والتجريديّ في تحليل البنية، وهو ما يجعل دراسة هذا التراث مجالاً مفتوحاً للمقارنة والتحليل، بعيداً عن التعميم أو الحسم المسبق.

الخاتمة:

خلص هذا المقال إلى أنّ مسألة تيسير النحو العربي تمثّل هاجساً علمياً وتعليمياً رافق الدرس اللغوي العربي منذ نشأته الأولى، ولم يقتصر على مرحلة دون أخرى، بل أسهم فيه الأوّلون والمتأخرون والمحدثون، كلّ وفق منطلقاته المعرفية وسياقاته التعليمية. وقد أبرزت الدراسة أنّ المنظومات النحوية جاءت استجابة واعية لجملة من الإكراهات التعليمية، في مقدّمتها صعوبة النحو وتجريده، والخشية من شيوع اللحن، فاضطّعت بدور وظيفي أساسي في ضبط القواعد وتقريبها إلى أذهان المتعلمين، من خلال اعتماد الإيجاز، وحسن الترتيب، والتدرّج في العرض، واستثمار الذاكرة الحفظية في خدمة الفهم. وأظهرت النتائج المتحصّل عليها أنّ المنظومات النحوية لم تكن مجرد صيغ تعليمية تقليدية، بل انطوت على أبعاد بيداغوجية متقدّمة، سبقت في كثير من مظاهرها ما تنادي به اللسانيات التعليمية الحديثة، كاعتبار الفروق الفردية بين المتعلمين، ومراعاة مستوياتهم الإدراكية، والانتقال المنهجي من الجزئيات إلى الكليات. غير أنّ الجدل اللساني الحديث، بما حمله من نزعة نقدية للدرس النحوي التراثي، قد أعاد مساءلة هذه المنظومات، لا من حيث أصلها ووظيفتها، بل من حيث طرائق توظيفها داخل السياقات التعليمية المعاصرة. وانطلاقاً من ذلك، يتبيّن أنّ الإشكال لا يكمن في المنظومات النحوية في ذاتها، بل في كيفية تفعيلها وتكييفها مع حاجات المتعلّم المعاصر، وهو ما يستدعي إعادة قراءتها قراءة وظيفية تربوية، تُدرجها ضمن مقاربات تعليمية تفاعلية، تُزاوج بين القاعدة والاستعمال، وبين الضبط النحوي والكفاءة التواصلية. كما يفتح هذا المجال آفاقاً بحثية واعدة، تتمثّل في تطوير منظومات نحوية تعليمية حديثة، أو إعادة صياغة التراثية منها في ضوء اللسانيات التطبيقية، وتوظيف الوسائط الرقمية والتقنيات التعليمية الحديثة، بما يحقق التوازن المنشود بين أصالة التراث ونجاعة التعليم، ويسهم في تحديد تعليم النحو العربي للمتعلّمين في مختلف المراحل التعليمية.

المصادر والمراجع

1. ابن جني. (1952). الخصائص تحقيق علي النجار. بيروت، لبنان: دار الكتب للطباعة والنشر بيروت.
2. ابن دريد. (1984). جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير البعلكي (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.
3. ابن فارس القزويني. (1980). مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام، مادة (نظم) ج1 (الإصدار 3). مصر، مصر: مطبعة الحلبي.
4. ابن مالك الطائي. (1409). شرح الكافية الشافية، تحقيق الدكتور علي موسى الشوملي (الإصدار 1). الرياض، السعودية: مطابع الفزرق.
5. ابن منظور. لسان العرب، مادة (نظم)، ج14.
6. أبي الحسن بن فارس بن زكرياء الرازي. (2008). معجم مقاييس اللغة (الإصدار 2). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية ج2.
7. أحمد جلاي. (2013). مقدمة لأصول النحو العربي (الإصدار 1). لبنان، لبنان: دار الكتب للحديث.
8. أحمد عبد السار الجوري. (1984). نحو التيسير دراسة ونقد منهجي. العراق، العراق: مطبعة المجمع العلمي العراقي.
9. الشّنايب فوزي حسن. (1988). تأملات في بعض ظواهر الحذف الصرفي، الحولية العاشرة، الرسالة 62. الكوت، جامعة الكويت، الكويت.
10. الطيّب البكّوش. (1987). التصريف العربي من خلال الأصوات الحديثة (الإصدار 2). تونس، تونس: المطبعة العربية.
11. جلال الدين السيوطي. (1387). تحقيق محمد أبي الفصل إبراهيم، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (الإصدار 1). مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
12. صالح بلعيد. (2004). مقالات لغوية. الجزائر، الجزائر: دار هومة.
13. عبد الكريم الأسعد. الشعر التعليمي ضمن مقالات منتخبة في علوم اللغة.
14. عبد المجيد عيساني. (2008). النحو العربي بين الأصالة والتجديد- دراسة وصفية نقدية لبعض الآراء النحوية- (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار ابن حزم.
15. فخر الدين الرازي. (2004). نهاية الإيجار في دراية الإعجاز (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار صادر بيروت.
16. كمال الدين علي بن مسعود بن محمود بن الحكم الفرغان. (1987). المستوفي في النحو، تحقيق محمد البدوي. القاهرة، مصر: دار الثقافة العربية.
17. كمال محمد بشر. (1973). دراسات في علم اللغة. القاهرة، مصر: دار المعارف.
18. لزرقي زاجية. (2021). واقع تعليم مادة النحو في الجامعة الجزائرية وسبل تيسيرها محل الممارسات اللغوية. الجزائر، الجزائر.
19. محمد الحباس. (2009). النحو العربي والعلوم الإسلامية دراسة في المنهج (الإصدار 1). عمان، عمان: عالم الكتاب الحديث.
20. نصر الدين الشيخ بوهني. (2014). الإعراب في اللغة بين الإبقاء والإلغاء (الإصدار 1). عمان، عمان: دار الراية للنشر.